محمود درويش

من منفى إلى منفى تعود..!

سالم الهنداوي

.. ها هي المنافي التي منحتك الطمأنينة دهراً خذلتك وعدتَ إلى منفاك الجوهري ساكتًا عن الكلام الذي منحْتنا أجمله وغفوْتَ بَعْدهُ دون قصد.

في منافيك، أيها الجميل، كان الوردُ أقلّ. وكان مديحك للظل العالي يأخذ مداه في الصبوات ويهتف في الحياة كيفما يشاء. لكنك أيها الصيَّاد وأيها الطريد، أيقنت بَعدها أن لا شيء يهرب منك، حتى الموت الذي كان هاجسك في الكلام وكان يسبق القصائد الختام في الياسمين.

غمرك الموت أيها الغريب، و «ميموريال هيرمان» يبحث في القلب بجيشه الأخضر عن «الأبهر» العنيد الذي يختبئ بين الأوجاع ويفتك بمفردات الحنين إلى قرية «البروة» أُم الطفولة ومنشدتها الأزلية في الغياب.

كنتَ في وجع الأبهر العنيد «فتى فلسطين» الذي لا يشيخ ولا يَطيح، الفتى الواثق الرشيق، صانع العبارة ومعناها. وكنتَ حينها أمير الكلام وفارس القبيلة الذي لم يترك الحصان وحيداً في الأرض اليباب، وكنتَ كما يصفك الضوء دومًا، تتبع أثر الفراشة إلى النُّور..

كنتَ أيها العاشق الجميل تلعب النرد وتفوز على وحدتنا وتغمرنا بدفء المكان الذي حللت. فأنت وحدك من كان يخرج بيننا يافعًا فيترك البياض ناصعًا في مساحات الكدر الشاحبة.

وحدك كنتَ هناك تمضي بالقناديل والمناديل وعبق الجليل، وكنتَ أنتَ الكبير الذي من أحلامه يسلك الحمام سماء القدس العتيق، وكنتَ أنتَ النبيل حدّ الهيام الذي يأخذ من السماء طلعة الشمس ومغيبها ويرسم الوطن العليل بفرشاة الصَّباح كي يستقيم المعنى في صميم الكينونة.

كنتَ بارع النشيد ومنشده في «ديار عرب» خلت من العاشقين، ومراراً كنتَ ذبيح محنتنا، توقظ خطونا الثقيل في الفلوات، فيعلو خطوك مزهواً ممشوقًا في العبارات.

كنتَ أشقانا في لعب النرد وماهر لا سواك، وكنتَ المحظوظ في روابينا،علمتك المنافي مقارعة الوجع بالشعر، وكنتَ مجابهًا لمؤامرة القلب على القصيدة..

وكنتَ البعيد أيها الحزين والقريب فينا. لكنك لم تكن تعرف أن منافيك ستأخذك يومًا من سؤالك في الوجود إلى الخيمة العارية، صامتاً في قفارها يتعقبك النحيب، بعيداً عن ورداتك التي زرعتها في حدائق الحنين.

رام الله أقصى منافيك ومنافينا. لكن قبرك الذي هناك فينا، يحرسه ظلك العالي وأكاليل الأشعار، ولا يعتليه الجدار العازل ولا الخوف من عصابات «الهاغانا»..

فكن هناك بين بعضنا غافياً في المهد وثريَّات النشيد، وكُن فينا، في معانينا الصغيرة، وكُن في أسماء القصائد التي غنَّيتها والوردات التي سمَّيتها، ولك الفوز دومًا يا لاعب النرد الجميل.

***

تذكرتك البارحة قبل موتك بيومَيْن، وأخرجتُ دواوينك التي أهديتني بعد موتك بيومَيْن، وكنتُ في خلال اليومَيْن الباقيَيْن أقرأ خطك الجميل وأجهش بالبكاء، أشاطر لوعة الأُم التي انكسر تنُّورها (لحظة الخبر) ولم يعُد الحنين مجيباً على خبزها.

تذكرتُ وسامتك في القلب وقرأتُ ابتهالك بي حين كنتُ أفك لُغز الكلام في صحافة بيروت منتصف السبعينيات، ورأيتك بعد ذلك كما أنت في لقائنا الطويل في طرابلس خريف ١٩٧٦ . حملتَ إليَّ شوق اللقاء مُجدداً في بيروت، لكننا لم نكن لنلتقي أبداً في أثناء تلك الحرب التي قسمت الزمن زمنيْن، وكدنا نلتقي في تونس وبعدها في نيقوسيا لو لم تكن دائم السفر بين محطتيْن أخرييْن. كنا دائماً على عجل، نغادر ظلالنا اليائسة في اللحظة التي تنتصب فينا شمس الظهيرة، وكأننا في الأرض نزرع ونذرع ولا نبال بحكمة عباد الشمس في الحقول. نتقاسم العواصم ولا نلتقي.. أبداً لم نعُد نلتقي، فاكتفينا كما يكتفي اليتامى بالحنين.

كنا نترك السلام بين الأصدقاء، في محطاتك المضيئة التي سرعان ما نغادرها أشتاتًا ونلتقي كي نغادرها أشتاتًا من جديد، فلم يبق لنا بعد كل تلك السنين التي غرَّبتك وغرَّبتنا سوى ذكرى كل تلك المحطات المضيئة التي حتمًا أظلمت في غيابك.

***

سلامي إليك من «سليم» في ستوكهولم، ومن «صبحي» في باريس، ومن «أمجد ونوري وحسام» في لندن، ومن «عبد الرحمن» في نيقوسيا، وسلامي إليك من «الياس» في بيروت، ومن «سميح» في الناصرة، ومن «غسَّان ومُنذر» في رام الله.. وسلامي إليك من كل السنونوات المهاجرة وقد اشتاقت إليك عنوة، وسلامي إليك من ألق كل المنافي.

سلامي إليك دوماً، وسلامي إلى رام الله سيِّدة المنافي.